72 - السيدة أم ذر

زوجة الوفـيّ الصادق

أمُّ ذرٍّ ﵂ زوج الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة، كانت قبيلته تقطع على الناس طريقهم، فتسلبهم حيناً أموالهم، وأحياناً أرواحهم.

روى البخاري قصة إسلام أبي ذر عن ابن عبَّاس ﵄ قَالَ: لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لأخيهِ، ارْكَبْ إلى هَذَا الْوَادِي، فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُل الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ ائْتني، فانْطَلَقَ الأخ حتَّى قَدمِهِ، وَسَمِعَ مِنَ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إلى أبي ذَرٍّ، فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأخلاقِ وكلاماً ما هُوَ بِالشِّعْرِ، فَقَالَ: ما شَفَيْتَني مِمَّا أَرَدْتُ، فَتَزوَّدَ وحَمَلَ شَنَّةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قدِمَ مَكَّة، فأَتى الْمَسْجِدَ، فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ ولا يَعْرِفُهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى أَدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيْلِ، فَاضطَجَعَ، فَرَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَف أَنَّه غريبٌ فَلمَّا رَآهُ تَبعَهُ، فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَصْبَحَ.

ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إلى الْمَسْجِدِ، وَظَلَّ ذَلَكَ الْيَوْمَ وَلا يَراهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَمْسَى، فَعَادَ إلى مَضْجَعِهِ، فَمرَّ بِهِ عَلِيٌّ ﵁ فقال: أَمَا نَالَ للرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ؟ فَأَقَامَهُ فَذَهَب بِهِ مَعَهُ لا يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ.

حَتَّى إذا كان يَوْمُ الثَّالِثِ فَعَادَ عَلِيٌّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَأَقَامَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: ألا تُحَدِّثُني ما الَّذي أَقْدَمَكَ؟ قال: إن أَعْطَيْتَنِي عَهْداً وَمِيثاقاً لَتُرْشِدَنِّي فَعَلْتُ، فَفعَلَ، فأَخْبَرَهُ، قَالَ: «فإِنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ رَسُولُ الله ﷺ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتْبَعْنِي،

فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئاً أخافُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَاءَ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتْبَعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مَدخَلِي، فَفَعَل فَانْطَلَقَ يَقْفُوهُ.

حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدَخَلَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي**» قال: والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ.

فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ، فَنَادَى بأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ، حَتَّى أَضْجَعُوهُ، وَأتى الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ قَالَ: ويْلَكُمْ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ وَأَنَّ طَرِيقَ تِجَارِكُمْ إِلَى الشَّأْمِ؟!! فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ لِمِثْلِهَا، فَضَرَبُوهُ وَثَارُوا إِلَيْهِ فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْهِ[1].

وعاد أبو ذر إلى قومه بإسلامه، فأخبر زوجته أم ذر بما حدث معه في مكة، فما تردَّدت في متابعته، وأعلنت إسلامها.

محبة النبي ﷺ لهما

وأحب رسول الله ﷺ أبا ذر فقرَّبه وأدنا، حَدَّثَ أَبُو زُمَيْلٍ - هُوَ سِمَاكُ بْنُ الْوَلِيدِ الْحَنَفِيُّ - عَنْ مَالِك بْنِ مَرْثَدٍ، عَن أبيهِ، عَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قال لي رَسُولُ الله ﷺ: «**ما أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ، ولا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ وَلا أَوْفَى مِنْ أبي ذَرٍّ، شِبْهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام**» فَقَالَ عمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَالْحَاسِدِ: يَا رَسُولَ الله، أَفَنَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، فَاعْرِفُوهُ لَهُ**»، قال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقَدْ رَوى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ: «**أَبُو ذَرٍّ يَمْشِي فِي الأَرْضِ بِزُهْدِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام**»[2].

---

(1) رواه: البخاري/ كتاب: المناقب/ باب: إسلام أبي ذر الغفاري/ برقم: (3572).

(2) رواه: الترمذي/ كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/ باب: مناقب أبي ذر الغفاري/ برقم: (3738).

كان أبو ذرٍّ صادقاً في ظاهره وفي باطنه وفي عقيدته، ولم يكن يحب الصدق الصامت، بل كان يريد الجهر به، لأن الصدق موالاة للحق، وتعبيرٌ عنه، فلا ينبغي له أن يستتر.

وقد حمل أبو ذرٍّ من رسول الله ﷺ وصيَّةً رائعة، وكان أبو ذر خير متبع لكتاب الله ﷻ، ولسنة مصطفاه ﷺ، وقد سأله ذات يوم رَسُولُ الله ﷺ: «**كَيْفَ أَنْتُمْ وَأَئِمَّةٌ مِنْ بَعْدِي يَسْتَأْثِرُونَ بِهَذَا الفَيْءِ؟**» قال: إِذَنْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ أَضَعُ سَيْفِي عَلَى عَاتِقِي، ثُمَّ أَضْرِبُ بِه حَتَّى أَلْقَاكَ أو أَلْحَقَكَ قَالَ ﷺ: «**أَوَ لا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ تَصْبِرُ حَتَّى تَلْقَانِي**»[1].

ووعى أبو ذرٍّ وصاة رسول الله ﷺ فأغمد سيفه، ولكنه لم يحبس لسانه عن قول الحق، ومحاربة الباطل.

صبرها على الزهد والوحدة:

كانت أُمُّ ذَرٍّ وأبو ذرٍّ قد اختارا الكفاف لحياتهما، ولما حانت ساعة الرحيل وبَدَا أَنَّ أَبَا ذَرٍّ حَضَرَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ بِالرَّبَذَةِ بَكَتْ أُمُّ ذَرٍّ، فَقَالَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ قَالَتْ: أَبْكِي لا يَدَ لي بِنَفْسِكَ، وَلَيْسَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسَعُكَ كَفَناً، فَقَالَ: لا تَبْكِي فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ ذَاتَ يَوْم وَأَنَا عِنْدَهُ فِي نَفَر يَقُولُ: «**لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلاة مِنَ الأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**»، فَكُلُّ مَنْ كَانَ مَعِي فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ مَاتَ فِي جَمَاعَةٍ وَفُرْقَةٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرِي، وَقَدْ أَصْبَحْتُ بِالْفَلاةِ أَمُوتُ، فَرَاقِبِي الطَّرِيق فَإِنَّكَ سَوْفَ تَرَيْنَ مَا أَقُولُ، فَإِنِّي واللهِ مَا كَذَبْتُ وَلا كُذِبْتُ قَالَتْ: وَأَنَّى ذَلِكَ وَقَدْ انْقَطَعَ الْحَاجُّ؟ قال: راقِبِي الطَّرِيق.

قَالَ: فَبَيْنَا هِيَ كَذَلِكَ إذا هِيَ بِالْقَوْمِ تَخُدُّ بِهِمْ رَوَاحِلُهُمْ كَأَنَّهُمْ الرَّخَمُ،

(1) رواه: أبو داود / كتاب: السنة/ باب: في قتل الخوارج/ برقم: (4132).

فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيْهَا، فَقَالُوا: مَا لَكِ؟ قَالَتْ: امْرُؤٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تُكَفِّنُونَهُ، وَتُؤْجَرُونَ فيهِ، قَالُوا: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَتْ: أَبُو ذَرٍّ، فَفَدَوْهُ بِآبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَوضَعُوا سِيَاطَهُمْ فِي نُحُورِهَا يَبْتَدِرُونَهُ، فَقَالَ: أَبْشِرُوا أَنْتُمُ النَّفَرُ الَّذين قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيكُمْ مَا قَالَ، أَبْشِرُوا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَا مِنِ امْرأَيْنِ مُسْلِمَيْنِ هَلَكَ بَيْنَهُمَا وَلَدَان أَوْ ثَلاثَةٌ فَاحْتَسَبَا وَصَبَرَا فَيَرَيَانِ النَّارَ أَبَداً»**، ثُمَّ قَدْ أَصْبَحْتُ الْيَوْمَ حَيْثُ تَرَوْنَ وَلَوْ أَنَّ ثَوْباً مِنْ ثِيَابِي يَسَعُنِي لَمْ أُكَفَّنْ إلا فِيهِ، فَأَنْشُدُكُمْ اللهَ أَنْ لا يُكَفِّنَنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ كَانَ أَمِيراً أَوْ عَرِيفاً أَوْ بَرِيداً.

فَكُلُّ الْقَوْمِ كَانَ قَدْ نَالَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً إلا فَتًى مِنَ الأَنصارِ كَانَ مَعَ الْقَوْمِ، قَالَ: «أَنَا صَاحِبُكَ ثَوْبَانِ فِي عَيْبَتِي مِنْ غَزْلِ أُمِّي وأَجِدُ ثَوْبَيَّ هَذَيْنِ اللَّذَيْنِ عَلَيَّ» قَالَ: «أَنْتَ صَاحِبِي فَكَفِّنِّي» فَكَفَّنَهُ[1].

وفي رواية أن أم ذر وقفت بجثته على الطريق كما أوصاها فمرَّ بها عبد الله بن مسعود مع بعض المؤمنين، فلما عرفه بكى، وقال: صدق رسول الله ﷺ حين قال: **«تَمْشِي وَحْدَكَ، وَتَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ»**، ثم واروه التراب.

رحم الله أبا ذرٍّ وأم ذرٍّ، لقد جاءا إلى الدنيا زاهدين وغادراها دون أن تتمكَّن منهما.

(1) رواه: أحمد/ كتاب: مسند الأنصار/ باب: حديث أبي ذر الغفاري/ برقم: (20409).